- عيسى الوكواك ايقونة المقاومة المنسية في تاريخ الجهاد الليبي
- بقلم:عادل على العرفي. بنغازي. ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
تمثل حركة المقاومة الوطنية الليبية ضد الاستعمار الإيطالي إحدى أنصع الصفحات في تاريخ الكفاح الإنساني الحديث من أجل الحرية والكرامة والسيادة الوطنية، حيث برزت في تلك الحقبة شخصيات استثنائية لم تكتفِ بالانخراط التقليدي في صفوف المجاهدين بل تجاوزت ذلك لتبتكر أساليب قتالية نوعية ومبتكرة أربكت حسابات القيادات العسكرية الإيطالية في الجبل الأخضر وضواحي بنغازي والمرج. ومن بين هذه الرموز المضيئة يبرز اسم المجاهد البطل عيسى عبد السلام الوكواك العرفي الذي قاد عمليات عسكرية نوعية استمرت حتى بعد استشهاد شيخ الشهداء عمر المختار. وتأتي هذه المقالة لتسليط الضوء على هذه الشخصية الاستثنائية من خلال استعراض نشأته البيئية والاجتماعية والتحولات التاريخية التي عاصرها مرورا بمهاراته القتالية الفذة وإدارته للمعارك الليلية والكمائن وانتهاءً بملحمة استشهاده فوق مشانق الفخر الإيطالية.

ولد المجاهد عيسى عبد السلام الوكواك في مدينة المرج التاريخية وتحديداً في منطقة سيدي إسماعيل وذلك في حدود عام ألف وثمانمائة وأربعة وثمانين وسط بيئة اجتماعية وقبلية تنتمي لقبيلة العرفة العريقة حيث نشأ في كنف أسرة غرست فيه قيم الشجاعة والإقدام والأنفة والوفاء للأرض والعقيدة. ومع اشتداد وطأة الغزو الإيطالي للأراضي الليبية واضطرار الكثير من الشباب للوقوع تحت طائلة التجنيد الإجباري الذي فرضه المستعمر، وجد عيسى الوكواك نفسه مجبراً على الدخول في هذا المسار مؤقتاً لكن روحه الوطنية الثائرة لم تتحمل البقاء في صفوف قوات الاحتلال. استغل الوكواك فترة وجوده الاضطراري لتعلم اللغة الإيطالية بدقة وفهم العقلية العسكرية للمحتل ودراسة تكتيكاتهم الحربية وأنظمة حراستهم ومواقع تموضعهم مما منحه ميزة استراتيجية نادرة وظفها لاحقاً

لصالح القضية الوطنية. قرر البطل الهروب من الخدمة العسكرية الإجبارية ملتحقاً بصفوف المجاهدين في دور الجبل الأخضر لتبدأ منذ تلك اللحظة مسيرته الفعلية كواحد من أشرس المقاتلين وأكثرهم دهاءً في مواجهة الجيوش الإيطالية المنظمة والمجهزة بأحدث الأسلحة والعتاد.

تميز عيسى الوكواك بصفات حربية مذهلة جعلت منه أسطورة حية بين رفاقه ومصدراً للرعب الشديد في قلوب الجنود والضباط الإيطاليين لدرجة أنهم كانوا يميزون ضحاياه بمجرد رؤية جثث قتلاهم. كان الوكواك قناصاً ماهراً من الطراز الأول لا تخطئ رصاصاته أهدافها أبداً وكان يركز رمياته بدقة فائقة لتصيب الجبهة مباشرة أو المسافة الواقعة بين العينين مما جعل المستعمرين يدركون أن وجود هذا القناص في أي منطقة يعني الموت المحقق لجنودهم. وإلى جانب براعته الأسطورية في القنص، امتلك مهارة فائقة في التخفي والتسلل والتحرك بمفرده أو مع مجموعات صغيرة منتقاة بعناية سعيا وراء أهداف حيوية خلف خطوط العدو. وأهّله إتقانه الكامل للغة الإيطالية لارتداء زي الجنود الإيطاليين والتحدث بلكنتهم واختراق معسكراتهم وحصونهم لجمع المعلومات الاستخبارية الحساسة أو لتنفيذ عمليات اغتيال خاطفة وسريعة ثم الاختفاء في أحراش الجبل الأخضر دون ترك أي أثر يذكر.

وبسبب مهاراته القيادية الفذة وشجاعته النادرة حظي عيسى الوكواك بثقة مطلقة من قائد حركة الجهاد الشيخ سيدي عمر المختار الذي أسند إليه مهمة قيادة الغزوات والعمليات الليلية التي كان يشنها المجاهدون ضد الثكنات والمواقع والمستوطنات الإيطالية. أبدع الوكواك في هندسة التكتيكات الحربية الخاطفة وابتكار أساليب الهجوم المباغت معتمداً على عنصر المفاجأة والانسحاب السريع قبل وصول الإمدادات للعدو مستفيداً من معرفته الدقيقة بجغرافيا الجبل الأخضر وتضاريسه الوعرة ومسالكه الخفية. وتعد عملية (كمين سيارة البياضة)من أشهر العمليات العسكرية التي خطط لها وأشرف على تنفيذها عيسى الوكواك حيث نصب فخاً محكماً لإحدى الدوريات

الإيطالية الهامة ونجح في تدميرها بالكامل ومصادرة أسلحتها وذخيرتها مما شكل ضربة قاصمة لهيبة الجيش الإيطالي المعزز بالطائرات والمدافع.

وقد سجل التاريخ ملاحم بطولية لعيسى الوكواك تبرهن على مدى جرأته وقدرته العالية على تحدي سلطة الاحتلال في عقر دارها ومن أبرزها قصة دخوله إلى منزل الكولونيل (أبياتي)الحاكم العسكري لمنطقة الجبل الأخضر. جاءت هذه المغامرة الخطيرة بعد تحدٍّ جرى بين الوكواك وأحد أعيان المنطقة الذي استبعد تماماً قدرة أي مجاهد على اختراق الطوق الأمني المشدد المضروب حول مقر الحاكم العسكري نظراً لوجود الحراسات المكثفة والعيون المنتشرة في كل مكان. تمكن عيسى الوكواك بذكائه الحاد وتنكره من تجاوز كل العقبات والدخول إلى قلب البيت والمثول أمام الكولونيل أبياتي ليوجه له إنذاراً شديد اللهجة بالكف عن مطاردة المجاهدين والتنكيل بالأهالي مؤكداً له أنه قادر على تصفيته في أي وقت لكنه يكتفي هذه المرة بالإنذار ثم انسحب بهدوء تاركاً الحاكم العسكري في حالة من الذهول والرعب والصدمة. ولم يقتصر دور الوكواك على العمليات الهجومية بل تولى أيضاً مسؤوليات أمنية وتنظيمية جسيمة منها قيادة كتيبة فدائية خاصة مكلفة بحماية شيخ الشهداء عمر المختار والقيادات المرافقة له مثل يوسف بورحيل والفضيل بوعمر والحسن الرضا وتأمين المواقع الحساسة للاجتماعات التاريخية مثل اجتماع سيدي أرحومة الشهير لمنع أي محاولة اغتيال أو غدر من طرف الجنرال السفاح غراسياني والقوات الإيطالية.

عقب الفاجعة الكبرى التي ألمت بحركة الجهاد الليبي والمتمثلة في وقوع شيخ الشهداء سيدي عمر المختار في الأسر ومن ثم إعدامه في سبتمبر من عام ألف وتسعمائة وواحد وثلاثين، أصيبت المقاومة بضربة موجعة أدت لتوقف الكثير من الأدوار العسكرية وهجرة أو استشهاد معظم القادة الكبار في الجبل الأخضر. ورغم هذا الوضع المأساوي القاتم وتفكك الأطر التنظيمية للمجاهدين، رفض عيسى

الوكواك الاستسلام أو إلقاء السلاح وقرر الاستمرار في طريق الكفاح وحيداً متبنياً استراتيجية حرب العصابات الفردية والخاطفة. استمر البطل في ملاحقة الدوريات الإيطالية وقنص الجنود وشن الهجمات النوعية لإقضاض مضاجع المحتلين وإثبات أن روح المقاومة لم تمت بشنق قائدها البطل عمر المختار مما جعل القيادة الإيطالية تدرك أن استقرار سيطرتها على المنطقة الشرقية مرهون بالقضاء التام على هذا الفدائي الصلب الذي بات يمثل جيشاً كاملاً في رجل واحد.

وقد أيقنت السلطات الاستعمارية الإيطالية تحت إشراف قادتها العسكريين مثل غراسياني ودودياتشي أنه لا يمكن النيل من عيسى الوكواك عبر المواجهات العسكرية التقليدية أو المطاردات المباشرة في شعاب الجبل الأخضر نظراً لمرونته الكبيرة وقدرته العالية على التخفي. لذا لجأت الإدارة الإيطالية إلى سلاح الحصار الشامل والابتزاز الأخلاقي والاجتماعي القاسي مستغلة تشييد خط الأسلاك الشائكة الذي امتد على طول الحدود الشرقية مع مصر لمنع وصول أي إمدادات أو ذخائر للمقاومين ومستندة كذلك إلى سياسة تجميع الأهالي في المعتقلات الجماعية الرهيبة لقطع شريان الحياة والتموين عن الفدائيين. وقد بادر القائد الإيطالي دودياتشي إلى جمع مشايخ وأعيان قبيلة السلاطنة وأبناء عمومة عيسى الوكواك ووضعهم أمام خيارين أحلاهما مر إما إقناع عيسى الوكواك بتسليم نفسه طواعية للسلطات الإيطالية أو إعدام المشايخ والأعيان وإبادة أفراد القبيلة بالكامل ومصادرة أملاكهم. أمام هذا التهديد الحقيقي والخطير بفناء أهله وقبيلته وفي ظل النقص الحاد في الذخيرة والتموين والكساء وانقطاع السبل كافة، وجد البطل نفسه مضطراً لتقديم التضحية الكبرى بنفسه لحماية دماء الأبرياء وتجنيب قبيلته مجزرة وحشية وشيكة فوافق مرغماً على تسليم نفسه واضعاً حداً لمطارداته الأسطورية.

لم تلتزم السلطات الإيطالية كعادتها بأي وعود ونقلت المجاهد البطل عيسى الوكواك على الفور إلى المحاكمة العسكرية الصورية في ضواحي مدينة بنغازي حيث صدر بحقه حكم الإعدام شنقاً حتى الموت ليتم

تنفيذ الحكم في يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من شهر يونيو لعام ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين وسط حضور حشد كبير من الأهالي الذين أحضرهم الطليان بالقوة لمشاهدة إعدام البطل بهدف بث الرعب في نفوسهم. سار عيسى الوكواك نحو مشنقة الفخر بثبات الجبال الشامخة ورأس مرفوع ولم تظهر عليه أي علامات للخوف أو الانكسار بل التفت إلى أبناء وطنه المحتشدين مودعاً إياهم بعبارته الشهيرة المؤثرة (تبقوا على خير يا أجواد)ليرد عليه الشيخ المجاهد خالد القيصة بكلمات خلدها التاريخ (فرقت الأجواد ياخوي) ومعنى الكلمة أن سيدى خالد كان يلوم نفسه والحضور على عدم تمكنهم من فعل شي لإنقاذ الوكواك....انتبه القائد الإيطالي لكلمة سيدي خالد ولكنه لم يكن يعرف العربية فالتفت الى الوكواك قائلا: ماذا قال لك هذا...فرد الوكواك مترجما بالإيطالية وحبل المشنقة في رقبته(إنه يظهر الشماتة بإعدامي) انقذ رفيق الجهاد وهو على مشارف الموت وتم تنفيذ الحكم الجائر:.لتصعد روحه الطاهرة إلى بارئها مسطرةً نهاية تليق بطلاً وهب حياته ودمه دفاعاً عن كرامة ليبيا وحريتها وسيادتها الوطنية لتظل سيرته العطرة نبراساً تقتدي به الأجيال المتلاحقة في حب الوطن والتضحية من أجله. رحم الله البطل عيسى الوكواك وكل شهداء ليبيا.وجمعنا الله بهم تحت ظل عرشه آمين.